المندائية : دين الوعي الكوني والإيمان بأبدية الروح

obeikan.com

obeikan.com

عند التعميد يعود المرء إلى حال الخلق...
عندما كانت الإنسانية جمعاء موحدة.

(ل. مايكل وايت)

بقي التعميد دائمًا مركبًا من أنماط ثقافية كونية: فقد أخذ أشكالاً معينة في الثقافات المتنوعة، مشكلاً بدوره هذه الثقافات.

(أيرن كافاناغ)

• • • • •

obeikan.com

إذا كان من الأهمية بمكان دراسة أديان الأقليات في الشرق الأوسط، فإنه من الأكثر أهمية وضع هذا الموضوع إزاء خلفية جغرافية تجسِّد مركزية هذا الإقليم وسط العالم القديم وإحتوائه على الوديان الخصبة، ونزوع شعوبه لتأسيس تقاليد دينية وإزالة أو الانتقال إلى أخرى. زد على ذلك ملاحظة مركزية بلاد الرافدين لأنها تقع في قلب الشرق الأوسط، أي في قلب القلب؛ إذا صحَّ التعبير.

كان وادي الرافدين الخصيب، قبل اكتشاف القارتين الأميركية والأسترالية بؤرة العالم القديم بحق، لأنه بقي مدى الدهور جاذبًا للتاجر وللجندي وللمغامر وللبدوي ولصيَّاد الكنوز وللدرويش وللناسك [١]، من بين آخرين من أنواع الشخصيات التي توجهت صوب الرافدين، كل واحدة لأغراضها أو لخدمة مصالحها الخاصة. لم تعكس هذه الحقيقة التاريخية ببلاغة أقوى، بضمن سياق دراسة الديانات التوفيقية، مما كتبته واحدة من أبرز "المستعرقات" [٢]، وهي السيدة "دراور E.S. Drower" (١٨٧٩-١٩٧٢)، تلك السيدة التي كرَّستْ حياتها لدراسة أقوام وأديان هذه البلاد فحبّرت انغماسها بسحرها؛ أرضًا وأناسًا، في كُتبٍ مهمة، مركِّزة على نزوع سُكَّانها الروحي وللقارئ شيئًا من شذرات ما كتبته:

تمتد السهول الرسوبية العظيمة لدجلة والفرات بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى لتبقى على تواصل دائم بكليهما. لذا صبت مسارات الطرق العالمية منذ أقدم العصور، من مرتفعات إيران،

ومن هِضاب آسيا ومن صحارى بلاد العرب، من سهول الهند عبر ما يُسمى اليوم "العراق" لتتجه منه نحو حوض البحر المتوسط. لذا تعرَّض سكانه لمختلف التأثيرات من جميع جهات العالم المتحضِّر، الأمر الذي يمكن أن يفسِّر خضوعهم لحكم مختلف الأقوام[٣].

ونظرًا لشغفها بتنوع التقاليد الروحية في بلاد الرافدين، راحت السيدة "دراور" ترصد هذه التقاليد وتدرسها في العراق الحديث عبر النصف الأول من القرن العشرين. تطيل هذه المرتحلة التأمل في طبيعة استجابة سُكان بيئة الرافدين لأنواع المؤثرات الوافدة، خاصة الروحية والثقافية منها، لأن هذه البلاد كانت بحق بيئة مثالية للتفاعلات الثقافية، فخدمت عبر العصور، فضاءً "مشجعًا لتشكيل الجدالات والتأملات الدينية على نحو قد لا تنافسها فيه أية بلاد أخرى في العالم القديم" [٤]، حسب رأي الباحث "موجان مؤمن Mojan Momen". يلقي هذا الرأي الضوء على ما عناه الباحث "تاكر W. F. Tucker" عندما كتب عن "سيولة الحدود الدينية"[٥] في العراق" " إنها أعباء التاريخ والهجرات والموارد الطبيعية الغزيرة من خيرات هذه الأرض الخصبة المعطاء هي التي جعلت بلاد بابل أرضًا مؤائمة لنمو المنظورات الدينية المتنوعة التي توفِّق بين الثقافات والعبادات القديمة من ناحية، وبين الأفكار التي وفدت من الحضارات العريقة للصين عبر فلاسفة الفيدك الهنود؛هي أفكار أحيت إيمان الإنسان بخلود الروح، موحية بأصل الروح المنبثق من الكينونة الإلهية، لذا تجدها قد تشبثت بأرواح الأسلاف الطيبة". [٦]

يشكِّل مزيج المعتقدات والتيقنات والغيبيات المكونات الجوهرية للدين المندائي الذي يتتبع بعض الباحثين عناصره المتنوعة إلى أصول بابلية ويهودية وفينيقية[٧]. لذا فإن هذا الدين الذي يُفترض بأنه دين تركيبي/توفيقي، يبقى عصيًّا على التحديد والتعريف والتصنيف الدقيق، حتى عندما يجرِّب العارفون من المندائيين أنفسهم ذلك.

يُعرف المندائيون في جنوب حوض الرافدين باسم "الصبة"[٨] (في العراق وإيران). وللوهلة الأولى يوحي المندائيون للدارس بأنهم من مسيحيِّ العمادة Baptists، نظرًا لمثابرتهم على ممارسة طقوس التعميد التي تشكِّل سِرًّا مُقدَّسًا من أسرار حياتهم الدينية ونقائهم الجسدي والروحي.

إن العمادات التي تُؤدَّى في المناسبات الدينية والاجتماعية على أيدي كهنتهم، تلك العمادات المعروفة في لغتهم الآرامية باسم "مسباتا" masbattah[٩] إنما تقوم على ارتماس الأفراد من قمة الرأس حتى أخمص القدمين في المياه "الحيَّة"، بمعنى المياه الجارية الطبيعية، تحت إشراف أحد الكهنة، لذا فإنها توثِّق وتؤكِّد الأصل والجوهر الرافديني لهذا الإيمان الديني الذي لا يمكن أن يبقى إيمانًا حيًّا بدون المياه الجارية، نظرًا لارتهان العمادات الدينية بها. هذا ما يفسِّر اختيار المندائيين لمساكنهم بالقرب من الأنهار والسواقي وعلى حافات الأهوار والبحيرات وسواها من المسطحات المائية الطبيعية. هكذا استحال الماء واستخداماته الدينية عنصرًا

جوهريًا للعمادات الدينية التي تجري في المناسبات الاجتماعية كالولادات والزيجات والتوبات من الخطيئة، أو لمجرد التنقية مما قد يكون لاث الإنسان في حياته من الأفعال الشريرة.

هذا ماجعل الباحثين والمؤرخين يذهبون إلى أن المندائيين إنما هم مسيحيو القديس يحيى المعمدان[١٠] Saint John the Babtist كما أشرنا أعلاه، وهي قناعة ليست ببعيدة المنال، باعتبار تقديسهم لـ"يحيى" الذي يُعرف في ثقافتنا العربية باسم "يحيى بن زكريا" أو "يوحنا المعمدان"[١١]، فهم يجلونه مُعلمًا روحيًا عظيمًا.

لقد لاحظ "ابن النديم" (المتوفي سنة ٩٩٥م) هيمنة طقوس العمادة والارتماس بالماء الحيِّ لدى المندائيين، فابتدع واحدًا من أدقِّ العناوين لإطلاقها عليهم، فأسماهم "المُغْتسِلة". لقد حاول ابن النديم

أن يعكس مركزية هذا الطقس في حياتهم الروحية[١٢]، من خلال هذه التسمية.

وعلى سبيل حلٍّ لغز الأصول، فقد حوَّل بعض الباحثين من القدماء والمحدثين معضلة الأصول إلى معضلة أكثر إرباكًا وغيمية بسبب غياب الأدلة العلمية، إذ ذهب بعضهم إلى أنهم من بقايا يهود السبي البابلي من هؤلاء الذين رفضوا العودة إلى فلسطين، الأمر الذي زاد من تعقيد وتشعب سؤال الأصول الخاص بالمندائية والمندائيين، فمكثوا في بلاد الرافدين بعدما أتاح الإمبراطور الفارسي "سايروس" لهم هذا الخيار.

وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، وبقدر تعلق الأمر بالإشارة إلى العناصر اليهودية الراسبة في المندائية، بوصفها إناءً واسعًا يحتوي مزيجًا من هذه العناصر إضافة إلى سواها من العناصر الدينية المجوسية والزرادشتية[١٣]، ينبغي على المرء أن يلاحظ وجود المندائية بداخل بيئة سُكانية أوسع يغلب على سكانها اعتناق الإسلام في كل من العراق وإيران. لذا تتبع المندائيون متوازيات معينة مع المسلمين الشيعة خاصة، على سبيل تعايشهم مع التشيع، ومع سواه من "أديان المضطهدين" [١٤] ، مع إشارة خاصة إلى العقيدة التي تشترك بها جميع هذه الأديان، هي عقيدة الإيمان بشكل من أشكال المهدوية، المستوحاة عند المندائيين من علم تنجيمي خاص بهم فقط، علم مكَّنهم من تشكيل تقويم كوني ابتدعه شيوخهم وكبار كهنتهم [١٥]. وبحسب رجل مندائي عارف، يتجسَّد إيمان

المندائيين بمخلص شبه مهدوي في تأملهم ظهور منقذ، يشبه الإمام المهدي الذي ينتظره المسلمون الشيعة إلى حدٍّ كبير. هذا المنتظر المندائي هو أصلاً راعٍ اسمه "سنيجر" (عُرف بالشِعر والحكمة)، رجل فريد البصيرة لا يشار إليه إلا مع الملحمة النبوئية التي ألَّفها قبل أن تحضره المنية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

يؤمن المندائيون أن تاريخ النوع الآدمي إنما يتكون من أربع حِقب رئيسة، كل واحدة منها تنتهي بانقراض النوع الآدمي، باستثناء زوج، هم رجل وامرأة، أي آدم وحواء. وبدورهما يدشِّنان الدورة التاريخية العظمى التالية من جديد: فقبل آدم الذي يحمل أهمية خاصة في معتقدات المندائيين بقدر تعلق الأمر بنسبهم، كان هناك "رود" Rud و "رام" Ram (رمزا السماء والماء)، أي الفردان الوحيدان اللذان بقيا حيَّين من الدمار المطلق الذي حدث قبل حوالي ٢١٦٠٠٠ سنة (بعد إتمام خلقهما) [١٦]. أما بالنسبة للحِقب الأخرى، فإن تفاصيلها تبقى طيَّ الكتمان والغموض في صدور الكهنة، خاصة بالنسبة لغير معتنقي دينهم.

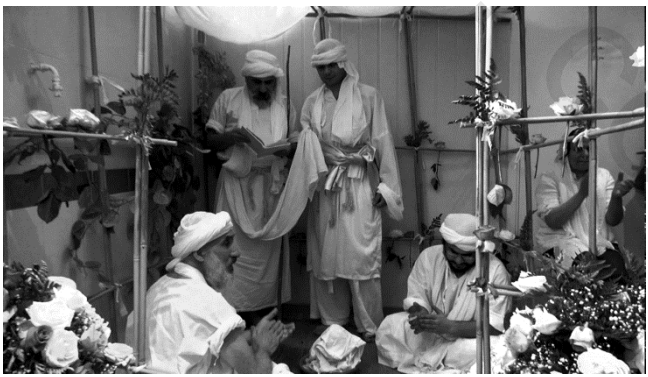

وبغض النظر عن لُغتهم المندائية وثقافتهم المكتسبة في جُلِّ عناصرها من بيئتهم الاجتماعية، يخص المندائيون أنفسهم باستثنائية كونهم عنصرًا بشريًا مستقلاً أو أُمة متفردة، تأسيسًا على دينهم (وهذا، على أغلب الظن، هو الذي يفرض عليهم الامتناع عن التزاوج من خارج جماعتهم الدينية المغلقة إثنيًا، خاصة وأنهم يتتبعون انحدارهم الوراثي إلى "آدم" مندائي خاص بهم، غير "آدم" الذي نعرفه في تقاليدنا الدينية السائدة: فينتسب المندائيون إلى آدم كان قد جاء من أرض سراندیب Sarandib، أي من جزيرة سيلان، ومن ثم إلى شجرة الأسلاف المتكونة من "قابيل" و"شيت" و"أنوش" و"أنوس" و"نوح" و"شام" و"رام"، نزولاً حتى يحيى المعمدان، أي "يهيى"، حسب لهجتهم[١٧]. وبطبيعة الحال، ليس من اليسير التحقق من حجم الحقيقة وحجم الخيال اللذين يكتنفان شجرة الأنساب هذه، إلا أنه من المهم التوكيد على ما يذهب إليه مؤرخو اللغات في أن لُغتهم الأصل هي الآرامية المتفرعة من شجرة اللغات السامية التي تضم إضافة للغتهم، اللغات العربية والعبرية والسريانية والآشورية، من بين لُغات سامية أخرى. لاينبغي لهذه الملاحظة أن تعمي المرء عن حقيقة مفادها أن المندائيين يستعملون لُغة عبادات خاصة، قوامها نظام معقَّد من الاستعارات والتشبيهات والرموز والرسوم والمجردات المشخصنة، إضافة إلى لهجتهم المندائية الخاصة المتشعبة من اللغة الآرامية[١٨]. ويتجسد نظام الاتصال، نصف اللفظي ونصف الصوري عندهم على نحو مؤثر

فيما يسمى بـ"الدواوين"، وهي لفائف مقدسة مخطوطة من البردي قد تمتد لأمتار، محفوظة عند أعلى كهنتهم مرتبة نظرًا لعدها كنوزًا دينية لا تقدَّر بثمن.

يشكِّل قرن الدين بالعنصر الإثني لدى المندائيين واحدًا من أهم المعضلات التي تواجه باحث المندائيات، خاصة عندما يلاحظ عنايتهم الفائقة بالحفاظ على نقاء عنصرهم وتشبثهم القوي بفكرة أنهم جماعة دينية/إثنية متفردة، جماعة كانت قد سبقت اليهودية وسواها من أديان الشرق الأوسط، وهي مسألة تثير المزيد من علامات الاستفهام حيال ما يدعون الانتساب إليه من شجرة نسب قديمة للغاية تعود إلى جدِّهم الكبير (نوح) على أقل تقدير. زدعلى ذلك إيمانهم بأن المصريين القدماء الذين غرقوا في البحر الأحمر -كما تذكر الكتب المقدسة - إنما كانوا من المندائيين.

يمكن لمثل هذه القناعات أن تعين المرء على حلِّ لغز تقديسهم يوحنا المعمدان (يحيى)، بوصفه رجلاً مندائيًا قام بتعميد السيد المسيح (ع) وائتمانه بأسس الدين القويم، لولا عدم وفاء الأخير، كما يعتقدون، بوصفه لم يكن سوى مسيحًا مزيفًا ("ميشا كدبا" بلغتهم). هم يعتقدون بأن يسوع المسيح قد حرَّف تعاليم يوحنا المعمدان. وتنطبق هذه القناعة المندائية كذلك على أنبياء آخرين مثل إبراهيم الخليل وموسى، حسب معتقداتهم.

ينطوي تتبع الدين المندائي إلى حقبات بهذه الدرجة من القِدم على تعميق الغموض المتناهي الأبعاد لتاريخ المندائية الديني الذي

كان قد نما في موقع جغرافي يتيح مدى واسع من المؤثرات للأقوام التي كانت تحتضن أديانًا وعقائدَ متنوعة، وهي أقوام كانت قد قطنت أقاليم بعيدة ثم هاجرت إلى حوض الرافدين، كما أشرنا إلى ذلك. لذا يصعب على المرء فكَّ هذا التعقيد من الخيوط المتداخلة والمتشابكة لفلسفة دينية تواشج بين جميع هذه العناصر المتنوعة على سبيل الخروج بفكرة مكتملة قابلة للفهم وللإدراك حول هذا التقليد الديني الفريد الذي غالبًا ما لا يحظى بنظرة واقعية حتى من قبل أتباعه أحيانًا، باستثناء كهنته المخولين الذين يحتفظون بمفاتيح أسرار الدين المقدسة بعناية فائقة، درجة أنهم يحفظون بعضها عن ظهر قلب، خشية تسربها خارج دائرتهم الدينية المحكمة الإغلاق.

وهكذا تبقى الطقوس والعبادات الدينية مغمورة وتبدو للناظر الخارجي وكأنها اعتباطية أو غير منظَّمة، فهي في حفظ دائرة مغلقة من العارفين من الكهنة، دائرة غدت صغيرة الآن للغاية قوامها الراسخون بالعلم منهم فقط. إن ما يشاهده غير المندائيين من هذه الممارسات والطقوس لا يزيد عن رأس جبل الجليد المنظور الذي يخفي حجمًا هائلاً من المعارف المنتظمة في طبقات موصولة بطبقات الهرم الكهنوتي تدرجًا من الأدنى إلى الأعلى. وكما يفعل أهل الحق، تحافظ المندائية بعناية على خصوصية مؤسسة على المعرفة الدينية، الأمر الذي يفسِّر عناية الكهنة بالحفاظ على مسافة بينية تفصل بينهم وبين عامة المندائيين، ناهيك عن عامة الناس.

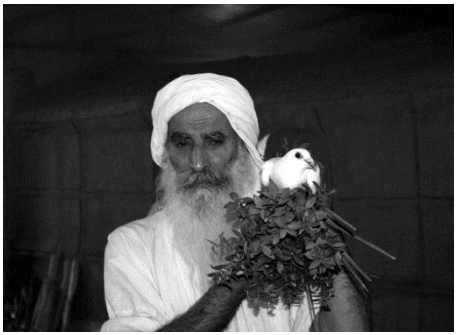

إذا ما رغب الرجل (غير مسموح للمرأة) المندائي بتسلق الهرم الكهنوتي، فان عليه أن يدرك مقدمًا أنه ذاهب إلى مهمة ارتقاء ما يلي من المراتب المعرفية، وهي (من الأدنى إلى الأعلى):

(١) مرتبة "الحلالي" أو "السوادية" أي العامة.

(٢) مرتبة "التورميذة" أو "الشورية" أي (التلمذة، وتعني أن صاحبها قد تهيأ الآن لدراسة الدين).

(٣) مرتبة "الكنزبرا" (أي الكاهن الذي يحيط بكتابهم المقدس المعروف بالـ(كنزا ربّا) الذي يعد نصهم المقدس الرئيس.

(٤) ثم تأتي مرتبة "الرشما" (أي رئيس الأمة).

(٥) وأخيرًا مرتبة "الرباني" (وهي الأسمى على نحو الإطلاق). ويعتقد المندائيون أن أحدًا لم يرتقِ إليها قط عبر التاريخ سوى "نوح".

يرينا الترتيب التدريجي أعلاه أن جميع الرجال المندائيين يعدون مرشحين مؤمنين، مسموح لهم بدخول السلك الكهنوتي، بغض

النظر عن الخط الفاصل بين الـ"المندائيا"، أو عامة المندائيين، وبين الكهنة الذين يُعدّون طبقة أعلى من البشر، نظرًا لما يضمونه من معارف روحية.

يتلخص المنظور المندائي للإله في أنه كينونة عظمى واحدة، كينونة كمنت وراء ما يُسمى بـ"السبب الأول". لذا تعكس الأسماء المندائية للذات الإلهية هذا المنظور، ومنها: "ملكا دا نورا" (بمعنى، ملك الضياء) و "مارا دربوثا" (بمعنى، ملك العظمة) و"مانا ربّا" (بمعنى، الروح العظيم)[١٩]. يرجع التيقن من وجود هذه الذات الإلهية مما ينبثق منها أثيريًا ("أوثري uthri"، بلغتهم) أو ماديًا، من موجودات وعوالم[٢٠]، وهي جميعًا تتولد، على أغلب الاعتقاد، من عنصريِّ الماء والضياء اللذين أبدعهما "خالق" كان، هو الآخر، قد انبثق من غياهب أعماق الكينونة العظمى التي مرَّ ذكرها[٢١].

يرتكن جوهر الدين المندائي على تقديس "مبدأ الحياة"، ذلك المبدأ النابع أصلاً من تفاعل الضياء ("نهورا"، بلغتهم،) والماء ("ياردنا"، بلغتهم)؛ وهما، كما يعتقد الباحثون، العنصران الأساس في مبدأ الخصب البابلي القديم، المسمى "تموز"، الذي تطور في بلاد الرافدين العظيمين، دجلة والفرات. وهما النهران اللذان شكلا، من الناحية الواقعية، تاريخ تلك الأرض وتواريخ الأقوام التي مرَّت بها أو استقرت عليها لبناء حضارات عظيمة، تركت للإنسانية إرثًا لا يقدر بثمن: فعلى ضفاف أنهر بلاد بابل دشنت الحضارة عصرها

الأول الذي نتج عنه الصراع الملحمي بين الإنسان الرافديني المستقر وبين قوى المياه المدمرة عبر طوفاناتها السنوية من فوائض مياه هذين النهرين التوأمين. لقد لخص المهندس والباحث التوراتي العراقي الكبير المرحوم الدكتور أحمد نسيم سوسة، تاريخ بلاد الرافدين في قصة هذا الصراع الملحمي بين الإنسان والماء، أي في تاريخ الري[٢٢]. في الدين المندائي لايوجد ثمة تناقض بين الإنسان والطوفان، كما قد يوحي ما ذكر في أعلاه حول الفيضانات فثمة تناغم مطلق بين الاثنين، أي بين الإنسان والماء. من هنا نبع التشبث المندائي بالماء الحي الجاري، أي الماء الحُرّ، غير المتاح في أي نوع من أنواع الآنية أو الأحواض المغلقة. ينطبق هذا الوصف فقط على المياه في الطبيعة، فحالما يوضع الماء في إناء مهما كان حجمه، أو أنه يغلى، فانه يفقد عنصر الحياة المكنون فيه، ليغدو ماءً ميتًا، أي ماء لا يصلح لأداء طقوس العمادة المرتكنة إلى فكرة ارتماس الإنسان في الماء الحي بوصفه وضوءًا روحيًا تنقويًا.

هذا هو ما يفسِّر حرص المندائيين على الاستقرار في مساكن تطلُّ على الأنهار أو الأهوار، أي على مصادر المياه الحيَّة. لذا لا يمكن للمرء أن يفترض وجود بدو من المندائيين قط.

لأن الماء (ياردنا) يمنح الحياة والخصب، فإن الضياء (نهورا)، من ناحية أخرى، يمنح الحيوية والصحة ونسغ الحياة والفضيلة والحكمة. لذا فإن تآصر الماء والضياء، الضروري لخلق الحياة من وجهة النظر البايولوجية إنما يتجسد روحيًا في تقليد التعميد الروحي الذي لم يزل متبعًا منذ دهور غائرة في القِدم. وللمرء أن يلاحظ، في هذا السياق، التشابه اللفظي، للغتهم السامية بذات المفردات المكافئة في اللغة العربية التي تنتمي، من وجهة نظر علم اللسانيات التاريخي، إلى ذات الشجرة اللغوية: فالنهر الجاري يسمى بالمندائية (نهرا)، في العربية يسمى (نهر)؛ وبينما يسمي المندائيون ضياء النهار بلفظ (نهورا)، تطلق العرب عليه لفظ (نهار)[٢٣].

وباعتبار ثنائية الماء/الضياء يمكن للمرء أن يرصد آثار المبدأ الثنوي المضموم طي علم الفلك المندائي، وهو المبدأ الذي يعده بعض الباحثين دليلاً على ما يذهبون إليه في تتبع عناصر دينية مندائية للديانات الثنوية السابقة للديانات التوحيدية. يبث هذا المبدأ الحيوية في النظام الروحي المندائي، حسب رأي هؤلاء الباحثين، الذين يحيلون هذا المبدأ إلى الإيمان بوجود كائن بشري نمطي عتيق هو الذي أنتج شاكلته على "أزواج"[٢٣]، في سبيل تواصل

النوع الآدمي عبر التكاثر، حسب منطق ثنوي وعلى نحو ثنائيات: الرجل/المرأة، يمين/يسار، ضياء/ظلام، أبيض/أسود، وعلى نحو متوازٍ صعودًا حتى بلوغ ما يعتقدون أنه "عالم الأفكار" السامي[٢٤]. أما الكينونة العظمى التي سبق ذكرها، فانها موطن الروح ومآلها الأخير، لأن وجود الروح في هذا العالم لا يزيد عن وجود معذب في حبس، فالأرواح تبقى تحوم في فضاءات منافيها عندما تكون بعيدة عن موطنها، أي عن تلك الكينونة العظمى.

وتأسيسًا على هذا المعتقد الذي يفيد بأن الأرواح إنما هي هنا في منفى، يغدو من المنطقي أن يؤمن المرء بأنها (أي الأرواح) أبدية: فحسب عقائدهم، تنتقل أرواح البشر حال وفاتهم إما إلى منافٍ أخرى في كواكب ونجوم بعيدة؛ أو أنها تنطلق نحو "عالم الأنوار" حيث تحيا ولادة جديدة كي تسمو فوق عالم المادة، الدوني الذي يهيمن عليه "بتاهل"[٢٥].

يدلُّ ما مرَّ ذكره من العقائد المندائية على خطأ ما يعتقده جيرانهم من أتباع الأديان الأخرى بأن المندائيين يعبدون النجوم والأجرام السماوية. والأصح هو أن المندائيين يؤمنون أن هذه الأجرام الكونية تضم "مبادئ الحياة" تحت هيمنة "ملكاد نورا"، أي ملك الضياء الذي سبق ذكره في سياق مناقشة عقائدهم في الربوبية. كما أنهم يؤمنون أن هذه الأجرام الكونية تؤثر على أرواح الناس وعلى حياتهم في طور الوجود الدنيوي. من هذا التراث العتيق المتواصل مع مراقبة الفضاء الخارجي، ينبع تفوق كهنتهم في علوم التنجيم

وفنون الغيب واستعمالات الأبراج، تلك المعارف التي توارثها الكهنة على نحو تسلسلي جيلي من قديم التراث الروحي الكلداني. لذا يعمد بعض هؤلاء الكهنة في أزمنة الفقر والعوز، الى إستثمار هذه الفنون والمعارف عبر صنع الأحجية والطلاسم أو القيام بالحسابات الفلكية لعامة الناس مقابل بدائل نقدية[٢٦]. تتواشج عناية الكهنة بالأجرام السماوية مع الوظائف والأدوار الاجتماعية التي يضطلعون بها على نحو تقليدي ثابت ومتواصل بوصفهم، كهنة وحكماء وفتاحي فأل، مسلحين ببصائر نبوئية نافذة مستوحاة من قدراتهم على قراءة السماوات وحركات النجوم وحساب الأبراج الفلكية بحثًا عن النبوءة والخبيء من علامات السوء أو علامات الخير. يعتقد الباحثون أن هذه الملكة إنما يتوراثها الكهنة أبًا عن جد على نحو تسلسل جيلي متوالي.

وكما لاحظنا في أعلاه، تنبع أهمية الأجرام الكونية في الديانة المندائية من أنها محطات انتقالية لأرواح البشر بعد وفاتهم عبر طريقهم الكونية الطويلة إلى "عالم الأنوار"، أي الفردوس المندائي الأبدي. وللمرء أن يفترض بشيء من التيقن أن إيمان المندائيين بأبدية الروح وبالبون الأثيري المهول بين الدنيا والآخرة، يتجلى في طقوس الغذاء والنذور التي يقدمونها لأرواح الموتى، خاصة من ذوي القربى، لأنهم يؤمنون أن الموتى إنما يستفيدون من الوجبات الغذائية التي يتناولها الأحياء في ذكراهم بعد تلاوة الأسماء الدينية للموتى، وهي الأسماء التي تمنح للأفراد حال

ولادتهم اعتمادًا على التنجيم وعلامات الأبراج، أي أسماء "الملواشا" الدينية التي تختلف عن الأسماء التي تطلق عليهم ويعرفون بها في الحياة الاجتماعية العامة. على الرغم من أنها تتواشج مع تقاليد نذور أقدم الأقوام الرافدينية والإيرانية، كالسومريين والكلدانيين والبارثيين، فإن تقليد نذور القرابين المندائية المكرسة للموتى غدت ظاهرة شائعة بين المسلمين من جيرانهم، خاصة بين الشيعة في العراق وإيران. وقد حلَّل الباحث حامد دباشي Dabashi هذا الطقس في المجتمعات الشيعية على نحو مختلف، ولكنه يستحق الملاحظة في كتابه الموسوم (التشيع: دين احتجاج)، مع إشارة خاصة إلى الأطعمة التي تقدم للمؤمنين في العاشر من محرم، ذكرى استشهاد الحسين بن علي (رض) [٢٧]. وهكذا تغدو وجبات نذور القربان عند المندائيين مناسبات اجتماعية بهيجة لأنها تجمع الأحياء بالأعزاء من الموتى، وكما لاحظت السيدة "دراور" بأنها " تتم بعد مناداتهم وتجمعهم حول الوجبات المقدسة باعلان أسمائهم أثناء الطقس الديني، حيث ينعم الموتى بحيوية ما عبر نسخهم الروحية المتمثلة في الغذاء الطقسي. لذا يبارك الموتى الأحياء"[٢٨].

ويؤمن المندائيون أن روح الإنسان عندما يتوفى، تتحرر من أسر الوجود المادي الدوني ليحيا ولادة جديدة، ولكن في كينونية روحية هذه المرة من أجل التحليق عاليًا في فضاء السماوات ليسموا فوق عالم المادة وذلك بمساعدة "الأرواح الوفية" التي

ترشده عبر تلك الرحلة اللازمنية الطويلة نحو عالم الأنوار، أي نحو الفردوس الأبدي.

لا ينطبق هذا التسامي التلقائي على الأرواح الضالة أو غير المرتاحة لأنها بحاجة لطقوس خاصة لإراحتها وإطلاقها على نحو ما يحدث للأرواح المباركة. ونظرًا لانتفاء البعد الزمني الأرضي الذي نألفه عبر الملكوت الروحي الذي ينطلق إليه الروح، يغدو من الصعب على المرء أن يدرك أو حتى أن يتخيل تلك الرحلة الأثيرية نحو الآخرة، بالرغم من أن المندائيين يعتقدون أن روح الميت تبقى حبيسة الأرض طوال خمسة وأربعين يومًا بعد وفاته على سبيل التهيئة للرحلة الكونية التي تبدأ في اليوم السادس والأربعين. وهكذا يتوجه الروح إلى النجم القطبي، برغم ضرورة تنقيته عبر تلك الرحلة الأثيرية من أجل تخليصه من براثن الخطيئة وأعباء الأفعال الشريرة، وذلك عبر "محطات" تنقية على طريق هذه الرحلة، المسماة الـ"موتراتا"، حسب لُغتهم الدينية[٢٩].

يبدو أنه من الخطأ أن يتتبع المرء اسم هذا الدين، "المندائية" إلى اللفظ "مندي"، كما يفعل بعض المهتمين، خطأً، ذلك أن الـ"مندي" لا يزيد عن كوخ العبادة الصغير الذي يبنيه المندائيون على ضفاف الأنهار لأداء الطقوس والقرابين الدينية، فالأصح إنما يتمثل في تتبع اسم هذا الدين إلى اللفظ "ماندا" الذي يعني "المعرفة" في اللغة الآرامية[٣٠]، بوصفه جِذر اسم الدين وجذر جميع الأسماء المشابهة المشتقة من ذات المصدر اللفظي، ومنها اسم كوخ العبادة أعلاه "المندي"، من بين ألفاظ أخرى تُشتق من ذات اللفظ.

بيد أن الأهم في سياق هذه المناقشة إنما هو الاستنتاج الذي يتشبث به بعض الباحثين، ومفاده أن صعوبة فهم الدين المندائي من قِبَل غير المندائيين إنما تنبع من افتراضهم أن هذا الدين هو "دين سِرِّي". والحق، فإن للمرء أن ينحى بمسؤولية هذا الافتراض الخاطئ إلى الكهنة المندائيين بوصفهم الأفراد المؤتمنين على حفظ أكثر جوانب هذا الدين خفاء، ومن ضمن ذلك كتمانهم للجداول الفلكية والرقمية والرموز والمعلومات التي تبقى في الحفظ والصون فلا يُسمح بالإطلاع عليها إلا من قِبَل أفراد دائرة ضيقة من رجال الدين الذين يتناقلون هذه الجوانب فيما بينهم أو لورثتهم لفظيًا فقط، تحاشيًا للتسريب. وأغلب الظن أن علة ذلك هي الخشية من سوء الفهم أو التندر المتوقعين من قبل غير المندائيين، بل ومن المندائيين أنفسهم في أحيان. إن دوافع كتمان الكهنة لهذه الجوانب

من التقليد الديني المندائي بعيدًا عن عامة المندائيين (السوادية) وسواهم من أتباع الديانات الأخرى لا تتعدى التشبث بالخصوصية، فلا يقصد بها إخفاء شيء سلبي أو ضار قط. إنها السرية التي تشبه كتمان المرء لشؤونه وشؤون عائلته بعيدًا عن عبث أو تدخل الغرباء، بوصفها شؤونًا خاصة لا تعني الآخرين. ومن ناحية أخرى، تمكن إحالة عناية الكهنة بعدم البوح ببعض خصوصيات دينهم إلى الأدوار الدينية التي يضطلعون بها في مجتمع المندائيين الصغير، إبتداءً من الولادة حتى الموت، وعبر المحطات الرئيسة في حياة الإنسان كالزواج والمرض والتنقيات بالعمادة، من بين محطات مهمة أخرى، فهي من اسرار المهنة، لاريب.

أما بالنسبة للفنون "السرية" التي يفترض البعض ممارستها من قبل الكهنة، كقراءة الفأل والتنبوء بالمستقبل والحسابات الفلكية، فإنها جميعًا تندرج في فضاء الماورائيات التي لا ينبغي للعامة من المندائيين أو غير المندائيين التدخل بها.

وليس بأقل أهمية مما سبق ذكره، وعلى سبيل تعزيز احتكار الكهنة لإدارة الطقوس الدينية، فيكمن في اللغة المستعملة في مثل هذه الطقوس، وهي لغة غير مفهومة من قبل العامة من المندائيين أنفسهم، لأنهم عادة ما يستعملون اللغة الدارجة للأقوام المحيطين بهم كالعربية في العراق والفارسية في إيران، أو كلاهما.

إن التحفظ الذي يحيط به الكهنة عباداتهم ينبع من الرغبة في الحفاظ على مسافة من نوع ما تمتد بين عالم الروح وعالم المادة

اليومي: فحتى عامة المندائيين لا ينبغي أن يتجاوزوا حدودًا معينة نحو الجوانب الداخلية أو الباطنية للدين لأنهم ليسوا على نفس الدرجة من الوعي بأهمية الحفاظ على هذه المسافة بين الأعماق الروحية والآخر، الأمر الذي قد يقود الغرباء إلى الانتقاص من إيمانهم الديني عبر إشاعة مبادئه لغير المندائيين، إذ يمكن لذلك أن يُسيء أو يقلِّل من شأن دينهم. وهكذا تبقى النخبة الكهنوتية دائرة خاصة مغلقة تكمن على المعارف الروحية التي تسمى الـ"ناسورايا" في لغتهم، نظرًا لأن محاولة الإمساك بمثل هذه المعارف إنما تنطوي على محاولة تحدي البون الذي لا يمكن جسره بين السماوي والأرضي، أي بين فضاء النخبة الكهنوتية وبين المندائيين العاديين، بالرغم من أن هذا البون لا ينبغي أن يساء تصويره بوصفه تعزيز لاحتكار الكهنة أو احتكار عدد محدود من الأُسر المندائية الكهنوتية المعروفة، فهذا سوء فهم وارد.

تتجلى المسافة التي تفصل بين العامة والكهنة فيما سبق ذكره حول "الدواوين"، أي النصوص الدينية المحبرة على لفائف مستطيلة من البردي التي يحتفظ بها الكهنة فقط، ككنوز. قد تمتد هذه اللفائف الثمينة لعشرة أمتار أو أكثر طولاً، وتحتوي على كتابات غامضة يصعب فك

شفراتها، كما تحتوي على رموز وقصص مصوَّرة، زيادة على تعليقات أجيال متتالية من الكهنة الذين عاشوا عَبْر الحِقب التاريخية المتتالية التي مرَّ بها الدين المندائي منذ أزمنة غابرة بالقدم. لذا فإن الدواوين تضعنا أمام تعقيد آخر، قوامه التمييز بين ما هو نصٌّ أصلي وما هو إضافة كهنوتية على النص المقدس، إضافة كان قد وضعها أحد الكهنة العظماء عبر العصور إسهامًا في الوثيقة الدينية. زد على ذلك تعقيد آخر يتلخص في عد جميع ما خُطَّ على هذه اللفائف (الدواوين) المخطوطة نصوصًا مقدسة، إضافة إلى كتبهم المقدسة كـ"كنزا ربّا".

إن اعتماد الكهنة على الذاكرة لتداول بعض النصوص الدينية حفاظًا عليها من التسرب لأيادٍ غير أمينة، إنما يعاكس الافتراض الذي يفيد بأن هذه النصوص محفوظة ومحروسة من قبل قوى غيبية، وهي ذات القوى المناط بها الحفاظ على الجنس المندائي في الدنيا والآخرة. ولكن على الرغم من أنه من العسير أو المستحيل فك رموز هذه المخطوطات، فإنها تبقى محرَّمة على غير المندائيين وربما حتى على المندائيين أنفسهم إذا لم ينتموا لنخبة الكهنة. لذا، فإن هذه الكنوز المقدسة، تدلنا على وجود "أرستقراطية كهنوتية"، إذ أن على الكاهن أن يؤدي القسم بأن يحافظ على الوثائق الدينية العتيقة، شرطًا مسبقًا لدخوله هذا السلك.

على الرغم من أن المندائيين المتدينين يحرِّمون مشاركة أتباع الأديان الأخرى نفس موائد الطعام، فقد أخذ هذا التحريم بالتلاشي

اليوم تحت وطأة العولمة وعوامل الاختلاط والمؤانسة بين الأقوام والثقافات المختلفة، خاصة بعد أن دخل المندائيون في الوظائف المدنية الحكومية العامة، وفي الخدمة العسكرية. وقد عزَّزت ظاهرة الهجرة الجماعية من أوطانهم الأصل عبر أسفل وادي الرافدين نحو الدول الأجنبية بحثًا عن السلام والأمن اللذين افتقدوهما في هذه الأوطان لأسباب عدم الاستقرار السياسي وتنامي ظواهر التعصب الديني والطائفي وتوسع الدائرة الاجتماعية سريعة التغير، نقول إنها عزَّزت مشاركة المندائيين سواهم الخبز وتعمدهم هدم الجدران الفاصلة التي فرضوها سابقًا حول أنفسهم، ففي عالم تسوده مطاعم الوجبات السريعة، يفوز قانون الضرورة، بطبيعة الحال. ومع هذا، يبقى الكهنة متمسكين بخصوصية الأكل على نحو محكم.

لا تتوفر معلومات دقيقة عن تفاصيل تأليف وتأصيل الكتابات المندائية المقدسة وأزمنة وضعها، فالحقيقة الوحيدة المتاحة للجميع هي كتاب الـ(كنزا ربّا)، أي كتاب (الكنز العظيم)، وهو واحد من أقدس نصوصهم الدينية، الأمر الذي يفسِّر تعمد أساطين الطائفة المندائية تعريبه مؤخرًا وربما تمَّت ترجمته إلى لغات أخرى سوى العربية. عندما يستذكر المرء حجوم التعليقات التي كان قد أضافها الكهنة إلى هذه النصوص المقدسة عبر العصور والحِقب فإنه يقترب من الظفر بفهم الظروف التي عاصرت هذه الإضافات، زيادة على ما تعكسه من أمزجة هؤلاء الكهنة الذين خطُّوها عَبْر

الحِقب، مخاوفهم وآمالهم، أي الظروف النفسية التي سادت إبان قيامهم بخطِّ الإضافات وبضمن المهادات العدائية العامة التي غالبًا ما رُدَّت إلى إساءات الفهم وإساءات التمثيل التي كان الدين المندائي ضحيتها بسبب تعصب الآخرين وانحيازهم وجهلهم في أحيانٍ كثيرة[٣٣]. لذا يغدو واضحًا أن هذه النصوص المقدسة لم تمت لأنها بقيت تنمو مع مرور الحِقب والأزمان على أيدي الكهنة ممن يخطون على حواشيها الكثير من شذرات فكرهم وتوهجات خيالهم. هي نصوص حيَّة لأنها تنمو على أساس تطوري متواصل كالكائن الحي.

وللمرء أن يلاحظ في هذا السياق أن المجتمع المندائي هو مجتمع مغلق عنصريًا، لأن دينهم لا يسمح لهم بالاقتران بأزواج من غير ديانتهم: فلو اقترن مندائي أو مندائية بشخص من غير دينه، فإنه يُعدُّ فاقدًا للصفة المندائية، فيستحق التعامل معه أو معها منبوذًا أو منبوذة من قبل "الأمة المندائية". يبدو هذا الانغلاق الديني خانقًا بالنسبة لمستقبل طائفتهم ودينهم، خاصة وأنه دين غير تبشيري. المندائيون قانعون بما هم عليه على الرغم من أن أعدادهم تتقلص على نحو مضطرد بسبب عدم ضم "الأجانب" إلى صفوفهم. تنطوي هذه الصفة الانعزالية على ما تسهل ما لاحظته في أنهم لا يطورون طموحات سياسية، فكل ما يرنون إليه لا يزيد عن الحرية بالإيمان الروحي وبممارسة طقوسهم دون تدخل أو مضايقة من أحد.

طالما كمنت هذه الصفة على ما يلاحظه غير المندائيين من مسلمين أو مسيحيين من أن المندائيين يمتازون بالمسالمة والميل إلى التناغم والتعاون مع جيرانهم من أتباع الأديان الأخرى. هم معروفون بسلوكياتهم الملتزمة أخلاقيًا، وبطبيعة الحال، بنظافتهم بسبب تكرار ممارسة أكثر طقوسهم العبادية أهمية، أي طقوس الارتماس بالماء الجاري، العمادة أو الـ("المشباتة" أو "المسباته"، بلغتهم).

لذا يجسِّد "صائغو الفضة العماريين" - كما أسماهم البريطانيون بُعيد احتلال العراق بداية القرن العشرين - مبدأ أن العمل إنما هو شكل من أشكال العبادة، وهو المبدأ الذي تحترمه جميع التقاليد الروحية. هذا التقديس للعمل هو ما يكمن وراء تفوقهم في الصناعات التقليدية والأعمال اليدوية التي تنتج أغلى ما تبدعه يد الإنسان، فظهر منهم الشعراء الكبار والمثقفون والعلماء المعتبرون والعسكريون والتربويون والصاغة والثقاة من أصحاب الحرف والأعمال.